كلية : الآداب

القسم او الفرع : اللغة العربية

المرحلة: الثالثة

أستاذ المادة : أ.م.د. نهاد فخري محمود

اسم المادة بالغة العربية : النقد القديم

اسم المادة باللغة الإنكليزية : Old Criticism

اسم المحاضرة الأولى باللغة العربية: ابن قتيبة وقضية الصراع بين القديم والحديث

اسم المحاضرة الأولى باللغة الإنكليزية : Ibn Qutaiba and the conflict between ancient and modern

مقرر الفصل الأول

ابن قتيبة وقضية الصراع بين القديم والحديث

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، ولد في الكوفة، وتولى منصب القضاء في الدَّينور، فنسب إليها، سكن بغداد شطراً من حياته كان ثقةً ديّناً عالماً باللغة، والأدب، والنحو، ومعاني القرآن، والحديث وغريبهما.

ذكر له صاحب الفهرست ثلاثة وثلاثين كتاباً. توفي سنة (٢٧٦ هـ).

كتابه " الشعر والشعراء"

بيَّن ابن قتيبة في المقدمة مادة كتابه قائلاً: " هذا الكتاب ألفته في الشعراء، أخبرت فيه عن الشعراء، وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم وقبائلهم، وأسماء آبائهم، ومن كان يُعرف باللقب أو بالكنية منهم، وعمَّا يستحسن من أخبار الرجل ويستجاد من شعره، وما أخذته العلماء عليهم من الغلط والخطأ في ألفاظهم أو معانيهم، وما سبق إليه المتقدمون وأخذَهُ عنهم المتأخرون، وأَخبرت عن أقسام الشعر وطبقاته ..."

القضايا التي ناقشها:

١-تتسم رؤية ابن قتيبة في هذا الشأن بثنائية تفصل الشكل عن المضمون في فن الشعر، وترى لكلٍّ منهما ضرباً خاصاً من الجماليات، وجملة القول في هذا الأمر إنَّ ابن قتيبة أعمل ثقافته النقدية في الشعر، فرأى أنَّ الشعر على أربعة أضرب من جهة توافر الجودة في لفظه ومعناه، وهي على النحو الآتي:

١-ضرب منه حسن لفظُه وجاد معناه، من مثل قول الفرزدق:

في كفه خيزرانٌ ريحُهُ عَبِقٌ من كَفِّ أروعَ في عِرْنينهِ شَمَمُ

يُغضي حياءً ويُغضى من مهابته فما يُكلَّمُ إلا حينَ يَبتَسِمُ

علَّق ابن قتيبة قائلا: " لم يُقل في الهيبة شيءٌ أحسن منه"

ومن ذلك قول أوس بن حجر:

أيَّتُها النَّفسُ أجملي جَزَعَا إنَّ الذي تحذرين قد وقعا

فقال: " لم يبتدئ أحدٌ مرثيةً بأحسن من هذا".

وقول أبي ذؤيب:

والنَّفْسُ راغِبَةٌ إذَا رَغَّبْتَهَا ... وإذَا تُرَدُّ إلى قَليلٍ تَقْنَعُ

وقول حميد بن ثور:

أرى بصري قد رابَني بعدَ صِحَّةٍ وحَسبُكَ داءً أن تصحَّ وتسلما

علَّق قائلاً: " ولم يُقل في الكِبَر شيء أحسن منه ".

وقول النابغة:

كِلِيني لِهَمٍّ يا أمَيْمَةَ نَاصِبِ ... وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيء الكواكبِ

٢- ضرب منه حسن لفظُه وحلا، فإذا أنت فتشتَه لم تجد هناك فائدة في المعنى، من مثل قول الشاعر:

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنىً كُلَّ حَاجَةٍ ... وَمَسَّحَ بالأَرْكانِ مَنْ هُو مَاسِحُ

وَشُدَّتْ عَلَى حُدْبِ الْمَهَارى رِحَالُنا ... وَلَمْ يَنْظُرِ الْغَادِي الَّذِي هُوَ رَائِحُ

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الأَحَادِيثِ بَيْنَنَا ... وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الأَبَاطِحُ

وقف ابن قتيبة موقفاً مستهجنًا تجاه هذه الأبيات لأنَّه وجد معانيها تفتقر الى الإيحاء أو الفكرة المفيدة، وقد تأتى هذا الحكم عندما نثر الأبيات (ولما قطعنا أيام منى، واستلمنا الأركان، وعالينا إبلنا الأنضاءَ، ومضى الناسُ لا ينظر الغادي الرائحَ، ابتدأنا في الحديث وسارت المطي في الأبطح).

أما النقاد المحدثون، فقد وقفوا موقفًا مغايراً من حكم ابن قتيبة، فهذه الدكتورة ابتسام الصفار، تقول: " إنَّ تعليق ابن قتيبة السابق على الأبيات يدلنا على رفضه لهذا النوع من الأشعار الرقيقة، وعدَّها وعدتها بالمرتبة الثانية من الأشعار التي يُرى فيها جمالاً في اختيار الألفاظ من دون المعنى".

أما الدكتور داود سلوم، فرأى أنَّ ابن قتيبة قد بالغ في النظرة الانفصالية الى اللفظ والمعنى، لأنَّه فكك الأبيات مما جعل الصورة فاقدة لجمالها، فضلاً عن أنَّه وجد تقريرية واضحة في المعاني التي انطوت عليها الأبيات .

أما موقف النقاد القدماء، فيمكن إجماله بالآتي:

عدَّ قدامة بن جعفر الأبيات السابقة أنموذجاً للأشعار التي توافرت فيها شروط إجادة الألفاظ من سهولة وسماحة، وسهولة مخارج الحروف، والفصاحة والخلو من البشاعة.

أما أبو هلال العسكري، فقد وصف الأبيات بجودة المطالع وحسن المقاطع وبديع المبادئ وغريب المباني. واكتفى ببيان فضل هذه الألفاظ من دون محاولة الانتباه إلى المعنى وجمال إيراده.

أما ابن جنى، فقد أفرد في خصائصه باباً ردَّ فيه على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعاني، فرأى أنَّ العرب حين أولت عنايتها بالألفاظ، فلأنَّها عنوان معانيها وطريقها الى

إظهار أغراضها ومراميها، فأصلحوها ورتبوها وبالغو في تحبيرها وتحسينها، ليكون ذلك أوقعَ لها في السَّمع وأذهب بها في الدلالة.

عليه، فقد تأمَّل هذه الأبيات، وبيَّن أنَّ من عابها يفتقر الى البصيرة في الشعر وجفاء الطبع، ويمكن إجمال رؤيته بالآتي:

أ) إنَّ قوله:" كل حاجة ..." يفيد منه أهل النسيب والرقة، لأنَّها توحي بأمور كثيرة منها التلاقي والتشاكي والتحلي، وجاء الشطر الثاني "ومسح بالأركان ..." ليبين أنَّ الحوائج التي قضيت والآداب التي تمت هي من ضمن الحاجات الواجب انجازها.

ب)وقوله: "اخذها بأطراف الأحاديث" هنا يتعجب ممن عاب البيت؛ لأنَّ الشاعر كان دقيقًا في اختيار الألفاظ ودلالتها. ففي قوله: "أطراف الأحاديث" إيحاء ورمز إلى ما يتعاطاه المحبون من التعريض والتلويح والإيماء من دون التصريح. وذلك أحلى وأغزل وآنس من أن يكون مشافهة وكشفاً ومصارحة وجهراً.

جـ) وقوله: " وسالت بأعناق المطي " فيه من الفصاحة الموجبة للاستحسان.

أما عبد القاهر الجرجاني، فيرى جمالية الأبيات تكمن بالآتي:

١-قوله: " ولما قضينا من منى " عبر فيه الشاعر عن قضاء المناسك بأجمعها والخروج من فروضها وسننها، ثم نبَّه بقوله: " ومسَّح بالأركان" على طواف الوداع الذي يعد آخر الأمر ودليل المسير الذي هو مقصوده من الشعر.

٢-قوله: " أخذنا بأطراف الأحاديث " ينطوي على استعارة بديعة، اذ وجد فيه علاقة بينه والقول السابق " ومسَّح بالأركان " وما فيه من زمِّ الركاب وركوب الركبان؛ لأنَّ عودة الحجيج مقترنةٌ بالانتهاء من آخر مناسك الحج، وهو مسح الأركان. أما لقطة "الأطراف" فهي تدل على الصفة التي يختص بها الرفاق في السفر من التصرف في فنون القول

وشجون الحديث. كما فهم عبد القاهر من تبادل أطراف الحديث جوّاً نفسياً مريحاً، يمكن إجماله بالآتي:

- ما توحيه أُلفة الأصحاب وأنسة الأحباب.
- ما يليق بحال من وفِّق لقضاء العبادة.
- تنسم روائح الأحبة والأوطان.
- تخيل استماع التهاني والتحايا من الخلان والإخوان.

٣-وقوله:" سالت بأعناق ..." أنَّ الشاعر قد زان الجو النفسي باستعارة لطيفة.

إذ جعل سلامة سيرها بهم كالماء تسيل به الأباطح، ثم قال: " بأعناق المطي" ولم يقل: "المطي" لأنَّ السرعة والبطء يظهران غالبًا في أعناقها.

٣-ضرب جاد معناه وقَصُرت ألفاظه عنه، من مثل قول لبيد:

ما عاتبَ المرءُ الكريمُ كنفسهِ والمرءُ يصلِحُهُ الجليسُ الصالحُ

قال: "هذا وإن كان جيد المعنى والسبك، فإنَّه قليل الماء والرونق ".

وقول النابغة:

خطاطيفُ حَجنٌ في حبالٍ متينةٍ تمدُّ بها أيدٍ إليكَ نوازعُ

قال:" ولست أرى ألفاظَه جيادًا ولا مبيِّنةً لمعناه..."

وقول الفرزدق:

والشَّيبُ ينهَضُ في الشَّبابِ كأنّهُ ... لَيْلٌ يَصيحُ بِجَانبَيهِ نَهارُ

٤ـ ضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه، من مثل قول الخليل بن أحمد:

إنَّ الخليطَ تصدَّع ... فطر بدائك أو قَع

لولا جوارٍ حسانٌ ... حُورُ المدامعِ أربع

أمُّ البنينِ وأسما ... ءُ والرَّباب وبوزع